نـافـذة

البحث عن عمل

مشكلة عالمية آخذة في التفاقم، وخاصة ضمن منظومة عالم الجنوب، تتحرك من الأسر، وترخي بظلالها على المجتمعات، وتقع فيها الحكومات والدول، والسبب زيادة الشراهة الاقتصادية على حساب تآكل النظام السياسي العالمي، الذي أوجد أسوأ العلاقات بين الشعوب وحكوماتها، والحال ينسحب لنراه بين الدول، ومن يهيمن على من، ناهيكم عن المشهد الأمني الدولي، الذي يظهر الآن في أسوأ حالاته، والكل يقف أمام من يصارع، حيث هواجس هذه المشكلة صنّفت المجتمعات بين الوظيفي والضريبي القانوني والتعسفي المربك، وبين المنتج الحر كما في الرأسمالية، والمنتج المقيد كما في الصين وروسيا وعالم الجنوب.

أيضاً دُرست نسب نجاحه بين الضعيف والوسط والجيد، والأكثر من ذلك، وبين هذا وذاك نشأت هوات فاضحة بين عالم الجنوب وعوالم الشمال، هذه التي فعّلت الأحلام والهجرات رغم كل المخاطر وبين عوالم الشمال ذاتها، والأسباب أكثر من معروفة، الرفاهية المفرطة والسعي لابتلاع عالم الجنوب وخداعه بصرياً، وتبيّن الصورة جيوشاً قادمة إلى الحياة نتاج التكاثر الهائل في عالم الجنوب وعدم القدرة على ضبطه على الرغم من الدعوات الصريحة والواضحة والقانونية لتحديد النسل وضبطه، لكن من دون متابعة، لتشكل جيوشاً لاهثة على التتابع، تبحث عن العمل في الخاص والعام، وكلٌ لديه طموح بتعب أو من دونه، بهدف أو بأمل الوصول إليه، حتى وإن كان بالحد الأدنى، والكل يريد أن يُعلّم أولاده، ويسعى لإيصالهم إلى المدارس، والجامعات انتشرت بكثافة، وتخرّج من جميع التخصصات، ملايين وأكثر يحملون الشهادات العليا والمتوسطة من دون توجيه، تعلمهم العلم النظري فقط، ترميهم في مجاهل الحياة بين أسرهم ومجتمعاتهم وتحت رحمة حكوماتهم.

إلى أين رحلة البحث عن عمل؟ ومسؤولية من تفريخ كل هذه الجيوش إلى الحياة بكل تناقضاتها؟ السياسات غير المنهجة في عمليات الاستيعاب، وكم الأزمات المتلاحقة يتقدم كل شيء، فالسياسة مهنة، والصحافة مهنة، والتجارة مهنة، والبغاء مهنة وهي الأقدم في التاريخ، وكذلك الصناعة والتخصصات الجامعية يجب أن تكون مهناً، ولذلك حمل أفراد المجتمعات العالمية والمحلية أسماء وألقاب مهنهم، ومازلنا حتى اللحظة نشهد ذلك، فالخباز والفحام والنعال والحداد والنجار واللحام والبغجاتي والنويلاتي والدهان والعسال والجبان والصيرفي والكتبي والكاتب والسمان والحلاق والخضري والنحاس والجوهرجي والصايغ والخوري والشيخ، وصولاً إلى آلاف المهن، حملها الإنسان، وتحولت إلى كنية عائلية نراها في بلادنا وأوروبا وأمريكا وآسيا، وحتى في مجاهل إفريقيا، وهناك من تمسك بها، وهي مستمرة حتى اللحظة، ومنهم من يبقى لديه غير اسمها، لأن الماضي اعتبر التخصص في المهنة مقدساً، والأقدس الاستمرار بها.

في يومنا الحاضر وأمام التعليم وانتشاره والتكنولوجيا ووسائلها تنمّر الأبناء، حيث رفض الكثير منهم هذه المهن، مستسهلين الجهد، ذاهبين إلى الوظيفة، ليفقد العالم الثالث – ونحن منهم– الكثير من هذه المهن، وبشكل خاص في بلادنا العربية.

أما في الغرب فمازالت المهنة مقدسة، والاستمرار فيها أقدس، ولنأخذ مثلاً عائلة مرسيدس وفورد وبورش وبوش وسيمنس وفيليبس وبيرللي وبيجو وتيفال وديور وكافالي وداو جونز وفرزاتشي وسايكو وشيروتي وفليب مورس وبارميزان وموتزاريلا التي زرتها في مدينة موديا الإيطالية، واجتمعت مع صاحبها، الذي قال لي وهو بعمر السبعين: إن جده أسس هذه الشركة، وهو الذي أبدع واخترع هذا النوع من الأجبان، واستمر حيث علّمه المهنة، ومن بعده الآن ابنه وحفيده اللذان درسا في أهم الجامعات، لكنهما آثرا أن يحافظا معه على المهنة التي تشكل لهم قيمة أسروية ودخلاً نوعياً، فهما مع أبناء مدينتهم لم يغادروها، إلا للسياحة فقط، وهنا أستذكر بأن الثبات نبات، ويتابع: إننا أسسنا عملاً شريفاً ووطنياً، وعندنا تبحث الناس عن وظيفة، ونحن نساعدهم على توافرها بدلاً من توجيههم إلى ما يفيدهم أكثر منها.

قادني هذا للمقارنة أمام ما لدينا من فرص هائلة من المهن مع مساحات كبرى للأراضي الخالية، التي بدلاً من أن نقوم باستزراعها يهجرها أبناؤها، ويذهب أبناؤنا للبحث عن العمل، لماذا؟ لأننا لم نقم بعمليات تطوير الفلاحة وتحويلها إلى زراعة، ولم نُدخل إليها التكنولوجيا، ولم نُعدّ المشتغلين فيها للاستثمار الإنتاجي، لذلك نجد أبناءهم يتعلمونَ ويتخرجون كما أسلفت، لتبدأ رحلة المتاعب والبحث عن وظيفة أو الهجرة. كيف يحدث هذا؟ وما مسؤولية التعليم والجامعات؟

في الصين يعلمونهم الإنتاج مع الدراسة، يطالبونهم بالتفكير الإنتاجي، فترى هذا ينتج لعبةً، وذاك علبة كبريت، وآخر يطور شكلاً بتكاليف زهيدة، وسرعان ما ينشرونها في بلادهم، ومن ثم تنتقل إلى العالم، لذلك استطاعوا أن يخترقوا كل منزل، وكل متجر متوافر على كوكبنا الحي.

يبدو أننا لم ندرك ما أسسه الآباء والأجداد من مهن بَصَمت بقوة في حياتنا وحياة محيطنا والعالم، وأخذنا نفقدها الواحدة تلو الأخرى، لنخسر معها قيماً وأخلاقاً ومنتجاً جيداً، فهل السبب ضعف المداخيل، أم سياسات الدولة، أم لغة العولمة وانتشار ثقافة الاستهلاك نتاج التكاثر البشري؟ وعلى الخصوص في عوالم الجنوب التي تتعلق بثقافة التكاثر، مستندةً إلى «تناكحوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم»، وأين نحن اليوم من الأمم التي تنتج النوع، ونحن مازلنا ننتج الكم، فالمهنة تحتاج الثبات في العمل، والثبات نبات كما يقول العامة، يعلّم الصبر على الرزق، حيث إن أخلصت لها أعطتك، وإن أهملتها أبعدتك عنها ولفظتك، ويحضرني هنا مثل يخص المهن والتجارة والعمل بشكل عام يقول: إن «المحل يحتاج إلى رجل مكسورة». ولد هذا المثل في سوق النحاسين في دمشق، فقد حضر قروي إلى السوق في يوم الخميس، وكان السوق يغلق، ووجد نحاساً فعرض عليه «مدقة هاون كبيرة» فحصها النحاس، وعرف في سرّه أنها ذهب، وكان القروي يحتاج إلى مال كي يعود إلى قريته، سأله النحاس: كم تريد بها؟ فقال: خمسون ليرة سورية، قال له النحاس: أعطيك مئة ليرة لأن وزنها من النحاس يعادل ذلك، فرح القروي وقال للنحاس: لديّ «الجرن» لكنه ثقيل، إن شاء الله الخميس القادم سأحضره لك.

أتى الخميس، ولم يحضر القروي، وفي الخميس التالي حدّث النحاس نفسه قائلاً: إنه لن يأتي، فأغلق باكراً، وإذا بالقروي يحضر، ويسأل جاره وهو يحمل الجرن، فقال له القروي: هل تأخذه مني؟ فاشتراه بثلاثمئة ليرة بعد أن عرف أنه من الذهب الخالص.

في صباح السبت اجتمع النحاسان، وسأل النحاس الذي اشترى الجرن جاره: هل اشتريت مدقة الجرن؟ فما كان من الذي اشتراها إلا أن أحضر مطرقة وضرب بها «رِجلَه» فكسرها، وقال حينها طوال عمري أقول إن المحل يحتاج إلى «رِجل مكسورة»، فالذي لا يحب عمله ولا يخلص له ولا يعطيه ولا يحَافظَ عليه ينهيه، فهل تعلمنا العمل والإخلاص والصدق والأمانة والرحمة والجرأة في الحق والثبات عليه، فتتوافر الفرص والحظوظ، وينتشر العمل بالقدرات والكفاءة.

ألا يجب مراجعة مسيرتنا والتوقف عند الكثير من المفاصل التي خرّبت وحولت اللهاث خلف الوظيفة إلى ابتكار عمل؟ فالوظيفة غدت اعتياداً لكونها رتيبة من الراتب، والكل يطلبها، والفرق بينها وبين المهنة التي ترتبط بالأجر والعطاء والإنجاز كبير، والكثير من دول العالم يعتمد الأجر حتى في الوظائف من أجل تسريع وتائر العمل، وتبدأ من الساعة التي تربطها بقيمة مادية، تبدأ من خمسة دولارات، وصولاً إلى عشرين دولاراً وأكثر، فتجد العطاء أكثر من مهم، والسعي أكثر من المتوقع، والتدفق مستمر في النتائج، مؤكد أن هذا مرتبط بمجموعة من القوانين التي تنظم العمل والعمالة والتعليم ومخرجاته الموجهة بما تحتاجه الدولة، فهل ندرك قيمة المهن ونعلي من شأنها لأنها تجسد شرف العمل؟

د. نبيل طعمة

نصف عقد على رحيل مؤسس «مسرح الشوك»

عمر حجو.. لم يكن يطمح إلى النجومية بقدر طموحه لأن يكون صانع المسرح

وائل العدس

لاحقته شائعات الموت أكثر من مرة نتيجة تدهور وضعه الصحي، لكنها كانت تخيب إلى أن صدقت قبل خمسة أعوام وتحديداً في شهر آذار، تاركاً وراءه إرثاً كبيراً وتاريخاً عريقاً، وهو من أبرز مؤسسي نقابة الفنانين السوريين في عام ١٩٦٧.

الفنان الكبير عمر حجو كان مربياً كبيراً وقد ترك برحيله مساحة فارغة في دنيا الإبداع لن يستطع أحد أن يملأها، بعدما عمل جاهداً على الارتقاء بالفن السوري في مختلف اختصاصاته، وكان الأنموذج الذي يحتذى به بما عرف عنه من حبه ووفائه وإخلاصه لزملائه وفنه، عدا أنه كان مدرسة فنية كبيرة يجب أن تدرّس، وعنواناً من عناوين مرحلة كبيرة عاشها وكان شاهداً عليها، كما أنه شخص مبتكر وصاحب أفكار عظيمة على المستوى الفني، وصاحب أخلاق رفيعة على المستوى الإنساني.

كان إنساناً وصديقاً وأخاً للجميع ومدرسة في الأخلاق الحميدة واحترام قدسية العمل الفني من خلال أدائه وحضوره وعلاقاته مع زملائه الفنانين، فكان يحب الجميع ويحترمهم وكان أكثر من فنان، حتى اعتبره كثيرون مفكراً فنياً ورائداً من رواد الحركة الفنية السورية.

وكما أن رحيله خسارة كبيرة للحركة الفنية السورية، فإن عزاءنا دائماً بأعماله الفنية الخالدة في حياتنا وبنجله المخرج الليث حجو المتمكن والمتميز بثقافته وحبه لزملائه حيث ملأ الساحة الفنية بأعماله الإبداعية.

ويؤكد النقاد أن حجو لم يكن يطمح إلى النجومية، بقدر ما كان يطمح لأن يكون صانع المسرح ومحركاً لنهضة الفن في بلده، فأخذ منه العمل خلف الكواليس الكثير من الجهود على حساب تفرغه لتحقيق النجومية.

ظروف صعبة

ولد الراحل في مدينة حلب في ٣١ من آذار ١٩٣١، ولم تعرف طفولته طعم الاستقرار، وكان يقطن مع عائلته في منزل صغير مستأجر في أحد الشوارع الفقيرة.

ومع مطلع شهر محرم الهجري كانت تبدأ رحلة عائلته للبحث عن موطئ قدم آخر، بسبب اعتقاد لدى فقراء المدينة بأنه إذا غيّر أحدهم بيته في شهر محرم، قد تكون رزقته أفضل في المكان الجديد.

والده عمل سائقاً في إحدى المؤسسات الحكومية، أما والدته فكانت ربة منزل غير متعلمة، لذا أرادت لابنها الأصغر أن يدخل المدرسة على عكس أخويه، وتلبية لرغبتها، دخل عمر المدرسة في وقت متأخر، وراح يتنقل من مدرسة إلى أخرى من دون أن يشده شيء سوى النشاط المسرحي المدرسي.

ظروف العائلة الصعبة جعلت مسيرة تعليمه تقف عند المرحلة الإعدادية.

على خشبة المسرح

بدأ عمر حجو أعماله في المسرح من خلال تأسيسه مع الممثل عبد المنعم إسبر فرقة «الفنون الشعبية» التي قدمت لأول مرة في تاريخ المسرح السوري مسرحيتين جادتين هما «الاستعمار في العصفورية»، و«مبدأ أيزنهاور»، ثم كان حجو أول من أدخل «التمثيل الإيحائي» إلى الوطن العربي من خلال مسرحية «النصر للشعوب» عام ١٩٥٩ على مدرج جامعة القاهرة أمام أعضاء المؤتمر الآسيوي الإفريقي، كما ساهم الراحل حجو بتأسيس المسرح القومي والتلفزيون السوري في ستينيات القرن الماضي.

في أواخر الستينيات أسس عمر حجو «مسرح الشوك» وقدم أول عروضه في المركز الثقافي الروسي بدمشق، قبل أن يتلقف الفكرة الثنائي نهاد قلعي ودريد لحام، ويقدم الثلاثي أعمالاً مميزة منها «جيراك» و«مرايا»، من ثم توجه مع رفاقه الممثلين لتأسيس مهرجان دمشق للفنون المسرحية كأول مهرجان مسرحي في الوطن العربي.

بعد عشر سنوات تقريباً توقفت فرقة «مسرح الشوك» وتابع حجو مسيرته المسرحية مع دريد لحام إضافة إلى الأديب الراحل محمد الماغوط من خلال فرقة «أسرة تشرين»، وقدم من خلال الفرقة العديد من الأعمال «ضيعة تشرين ١٩٧٤، غربة ١٩٧٦، كاسك يا وطن ١٩٧٩، شقائق النعمان ١٩٧٨».

ولكن المساهمة المسرحية الأخرى المهمة في مسيرة عمر حجو كانت تأسيسه للمسرح الجوال التابع لوزارة الثقافة بالتعاون مع المسرحي الراحل سعد الله ونوس والمخرج علاء الدين كوكش.

بقي حب المسرح في عقل عمر حجو، فعاد إليه عبر مسرحية «السقوط»، والتي كانت آخر أعماله المسرحية، وشارك في كتابتها ومثل فيها بالشراكة أيضاً مع دريد لحام وقدماها على مسرح قطر الوطني في عام ٢٠١٠، قبل أن يطلق مشروع «مسرح الهواة الدائم» في حلب عام ٢٠١١ مع مجموعة من الفنانين المسرحيين، كما كان أحد أبطال مسرحية «صانع المطر» في عام ١٩٩٢.

في لقاء صحفي عام ٢٠٠٤، قال حجو إن «مسرح الشوك» كان تجربة متقدمة في المسرح السوري، وللأسف هي المدرسة التي أغلقها خريجوها.

فن الإيماء

بالعودة إلى التمثيل الإيمائي، وبالتزامن مع العدوان الثلاثي على مصر، بدأ حجو بتقديم أولى مسرحياته مع فرقة هاوية أسّسها في تلك الفترة، ولقيت عروضها صدى وإقبالاً لدى الجمهور. لكن عرض مسرحية «مبدأ أيزنهاور» دعت السفارة الأميركية للاحتجاج عليها بعدما أرسلت موفداً حضر العرض، ما دفعه إلى التفكير في حل يتذاكى فيه على الرقابة، من دون أن يخل بمستوى عروضه، فلجأ إلى فن الإيماء أو «البانتوميم»، وراح يعبّر عن كل ما يريده. وقدّم مجموعة كبيرة من مشاهد البانتوميم تلك، مطلقاً عليها اسم «فواصل موسيقية صامتة»، حتى اكتشف الرقيب الأمر فضيق عليه، وطلب منه أن يضع فكرة كل فاصل مكتوبةً على الورق.

البانتوميم فكرة راقت للإعلامي صباح قباني (أول مدير للتلفزيون السوري) فأراد أن يرسل حجو إلى فرنسا ليدرس اللغة، ويتتلمذ على يد زعيم البانتوميم مارسيل مارسو، ومن ثم يعود ليؤسس مسرح بانتوميم في إطار وزارة الثقافة السورية. لكن سوء التنسيق منع تحقيق مشروع قباني، وأجهز على حلم حجو.

في التلفزيون والسينما

يعد حجو من مؤسسي التلفزيون السوري، حيث بدأ رحلته مع المخرج سليم قطايا عندما أنتجا أول مسلسل تلفزيوني هو «ساعي البريد» ١٩٦٢، ثم قدم مع المخرج غسان جبري «حكايا الليل» ١٩٦٨ و«تلاميذ المدرسة» ١٩٧٠ و«دولاب» ١٩٧١، وقدم مع دريد لحام مع بداية البث الملون «وين الغلط» و«وادي المسك» وغيرهما.

وشارك الراحل في الدراما السورية بما يقارب ٨٠ عملاً نذكر منها «بريمو» ١٩٧٣ و«الدغري» ١٩٩٢ و«خان الحرير» ١٩٩٦ و«الفراري» و«باب الحديد» ١٩٩٧ و«الثريا» ١٩٩٨ و«تلك الأيام» و«حي المزار» ١٩٩٩ و«سيرة آل الجلالي» ٢٠٠٠ و«بقعة ضوء» و«أيام اللولو» و«مبروك» ٢٠٠١ و«قلة ذوق وكترة غلبة» و«البيوت أسرار» ٢٠٠٢ و«أنا وعمتي أمينة» و«قانون ولكن» ٢٠٠٣ و«عالمكشوف» ٢٠٠٤ و«خلف القضبان» ٢٠٠٥ و«الانتظار» و«أحقاد خفية» ٢٠٠٦ و«كوم الحجر» و«الهاربة» ٢٠٠٧ و«رياح الخماسين» و«باب المقام» ٢٠٠٨ و«قلبي معكم» ٢٠٠٩ و«البقعة السوداء» ٢٠١٠ و«أرواح عارية» ٢٠١٢ و«سنعود بعد قليل» ٢٠١٣ و«بقعة ضوء١٠» ٢٠١٤.

في السينما، وبالتزامن مع ثنائيته الناجحة في المسرح مع دريد لحام أطل عمر حجو بالعديد من الأفلام منها «صح النوم» ١٩٧٥، «إمبراطورية غوار» ١٩٨٢، «الحدود» ١٩٨٤، «التقرير» ١٩٨٦، «كفرون» ١٩٩٠.

كورونا والأدب.. هل تنبأ الأدباء به؟

إعداد: مها محفوض محمد

هل جاء في عناوين الروايات «العمى، الكوليرا، الطاعون» تعبيرا صريحا عن أوبئة حقيقية فعلاً أم كانت مجازاً عن أوبئة أخلاقية أصابت المجتمعات وفتكت بها تناولها الكتاب برمزية وإيحاء إلى تفشي العنف والظلم وتعرية الواقع والنقد للأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية حيث يجتاح الوباء المجتمع ويفتك بالأخلاق كما الأرواح وأنه لو تم القضاء على فيروس الوباء الحقيقي فإن الوباء المجازي لا ينتهي كما رأيناه عند ألبير كامو في رواية «الطاعون» التي يرمز فيها إلى الجهل الفكري ويتطرق إلى قضايا أخرى مثل الحرية والإرادة والوجود ويلامس الهموم الإنسانية.

كثيرة هي الروايات التي شكل الوباء فيها محركاً أساسياً لأحداثها ومجالاً واسعاً لسرد الحبكة الروائية فنجد بعض الكتاب استمدوا منه لإغناء خيالهم حتى لو أنه غير موجود فاختلقوا وباءً خيالياً أقاموا عليه منصة إبداعية قدموا من خلالها رؤاهم النقدية والفلسفية للقارئ.

رأينا ذلك عند الكثير من الأدباء العرب مثل طه حسين ونجيب محفوظ أيضاً عند الغيطاني وعسقلاني وهاني الراهب وغيرهم كما عند أدباء الغرب ففي حين ينظر العالم إلى الوباء الذي يحصد أرواح البشر بهلع وخوف كما يحدث اليوم مع انتشار كورونا يجد فيه الروائيون مادة إلهام بل تنبؤ كما حصل في أعمال أدبية كثيرة ومع كورونا اليوم يجري الحديث عن رواية « عيون الظلام « للكاتب الأميركي دين كونتيز بأنه تنبأ بظهور فيروس كورونا في ثمانينيات القرن الماضي حيث صدرت الرواية عام ١٩٨١ رغم غموض العلاقة بينها وبين واقع ما يحصل اليوم، الرواية كانت تشير في نسختها الأولى إلى سلاح بيولوجي خيالي باسم غورغي – ٤٠٠ وهي اسم مدينة روسية إشارة إلى أن العلماء الروس هم من صنع هذا السلاح لكن الاسم تغير إلى ووهان في نسخة عام ١٩٨٩ وفي المعلومات ما يشير إلى أن الكاتب وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وتحسن العلاقات مع روسيا اختار مدينة ووهان في الصين كبديل

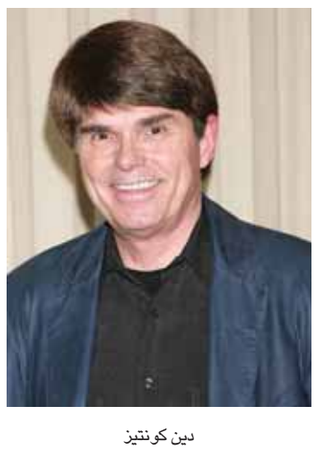

دين كونتيز

يتناسب مع التخوف الأميركي من صعود الصين وتهديدها.

كونتز الذي تميزت رواياته بالإثارة والتشويق حقق بعضها المبيعات الأعلى من بين الكتب كما عادت إلى الواجهة روايات كلاسيكية كانت قد تناولت انتشار الأوبئة قديماً لترتفع مبيعاتها بشكل لافت هذه الأيام خاصة في ايطاليا التي يزداد فيها انتشار فيروس كورونا حيث جاء في أحد عناوين الصحافة الفرنسية «تأثير كورونا يقلب الذائقة الأدبية لدى الطليان» وما الذي جمع بين الكاتب البرتغالي خوسيه ساراماغو والفرنسي ألبير كامو ليتذوق الطليان رواياتهما ويتهافتوا على شرائها؟ كما تشير صحيفة LA REPUBLICA التي أجرت استقصاءً خلال أيام فقط لتجد أن رواية «العمى» لساراماغو والطاعون لألبير كامو قد تسلقتا سلم المبيعات لتصبحا في مقدمة مبيعات الكتب على موقع أمازون.

رواية العمى « ١٩٩٥» تعد من أبرز أعمال الكاتب ساراماغو الحائز نوبل للآداب وتتحدث الرواية عن وباء غامض يصيب إحدى المدن فيفقد أهل المدينة بصرهم جميعاً (بالمعنى الحقيقي) أي هو يقصد عمى الفكر والثقافة فالمجتمع يبحث عن نظاراته وتعم الفوضى والاضطراب أي أراد الكاتب أن يوضح للعالم كيف تصبح

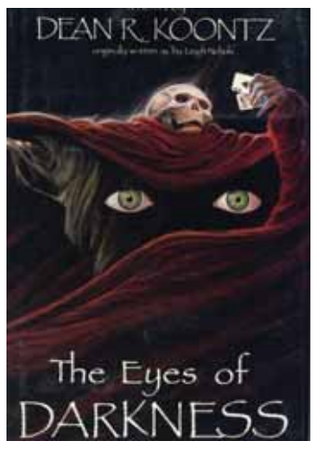

الحياة في مدينة غاب النور من عيون سكانها ومع عتمة البصر تموت الضمائر وفي عبارات طويلة متجردة من الماديات يوصف ساراماغو فقدان الطابع الإنساني مستلهماً ذلك من واقع الحياة وهذا ما فعله كامو أيضاً في روايته « الطاعون» الصادرة عام ١٩٤٧ والتي حاز عليها جائزة نوبل للآداب وتدور أحداثها في مدينة وهران الجزائرية حيث يجتاح الطاعون المدينة وتعلن حالة الحصار وتنقطع المدينة عن العالم يتحدث كامو عن موت الجرذان في الشوارع وداخل الأحياء ومن ثم تختلط جثث الجرذان بجثث البشر فهناك مئات الموتى كل يوم وشخصيات الرواية من كافة طبقات المجتمع فالوباء يقع على الجميع.

في الحقيقة أن وهران لم تشهد هكذا حدث كان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية التي حصدت ملايين الأرواح وكامو لم ينكر أبداً أن روايته كانت مجازاً للنازية التي انهارت الحكومة الفرنسية أمامها فالرواية كمحتوى ترمز لنضال المقاومة الأوروبية ضد النازية، هذا ما كتبه كامو إلى الفيلسوف الفرنسي رونالد بارث: «عصية المرض تم القضاء عليها لكن الأحياء الباقين يشتكون أكثر من الضحايا» وهنا الإشارة إلى عدم انتهاء الطاعون المجازي مع انتهاء الطاعون الحقيقي والبشرية تكشف عن وجها الحقيقي.

الرواية عادت بقوة أيضاً لتباع في فرنسا خاصة (كتاب الجيب) حيث بيع منها خلال الأسابيع الماضية آلاف النسخ كما ازدحمت عناوين الصحافة الفرنسية بهذا الموضوع منها صحيفة لوموند التي عادت لتذكر بهذه الروايات قائلة: « هل يقلقكم فيروس كورونا؟ لا رعب لقد فكر الأدب في كل شيء: الكوليرا، الطاعون، شلل الأطفال، الانفلونزا، الجدري، فعند الكتاب هذه الأمراض جميعها تجعل البيع ممكناً ».

من هؤلاء أيضاً الكاتب الأميركي جاك لوندون الذي كتب رواية « الطاعون القرمزي» عام ١٩١٢ وهي من أدب الخيال العلمي تدور أحداثها في العام ٢٠٧٣ وفيها يستبق ما بعد نهاية العالم إثر اجتياح وباء الطاعون لكوكب الأرض قبل ستين عاماً الذي يتسبب بتصبغ الجلد فينتشر المرض بسرعة وتتلون وجوه المصابين باللون القرمزي ويموتون خلال ثلاثين دقيقة من ظهور المرض ولا يكتشف أي علاج لهذا المرض، أحد الناجين القلائل من الوباء هو العجوز سميث يروي للأحفاد اللحظات الأخيرة من عمر الحضارة الإنسانية وكيف يعود العالم إلى طبيعته الهمجية فتعكس الرواية نقداً اجتماعياً وثقافياً للمجتمع المعاصر الذي يبدو ضعيفاً أمام الكوارث مهما بلغ به تقدم العلوم.

رواية «نيميسيس» للكاتب الأميركي فيليب روث الذي تميز أسلوبه بالخلط بين الخيال والواقع يروي فيها كيف يتفشى وباء شلل الأطفال عام ١٩٤٤ في مدينة نيو أرك الصغيرة وينتشر بسرعة في مناطق واسعة من المدينة ويموت الأطفال المساكين خلال أيام، يقول روث في إحدى مقابلاته: لم يكن هناك عدوى شلل الأطفال في المدينة لكن ما كتبته يحمل رؤيتي للعالم اليوم.

فالحرب ضد الوباء لم تكن أقل شراسة من الحرب الدائرة في أوروبا والباسيفيك وتجاهل الأميركيين للمجازر المرتكبة هناك.

وتعد رواية ستيفن كينغ «الموقف» ١٩٧٨ من أهم روايات خيال الرعب يقدم فيها رؤية تفصيلية عن انهيار شامل للمجتمع بعد إطلاق فيروس معدل لحرب بيولوجية تقضي على العالم فماذا أفضل من كريب قوي لإعادة العدادات إلى الصفر؟

انتشار طارئ لفيروس عقب حادث في مختبر يدمر تقريباً البشرية كلها والباقون على قيد الحياة يقتلون ضميرياً فيأخذ ستيفن القارئ لنهاية العالم في جميع المراحل حتى المواجهة الخيالية الأخيرة ويمحو الرعب سنوات طويلة من التوازن ومع السخرية التي تميزه يضعنا كينغ بمواجهة البؤساء الذين يعيشون كفاف يومهم.

ومن المعلوم أن ستيفن كينغ هو سيد الخيال والرعب في العالم ساهم في إنتاج أكثر من خمسين فيلماً من أفلام الرعب وهو أحد الكتاب الأكثر مبيعاً في العالم.

ومن الروائيين الفرنسيين الذين وظفوا هذا الموضوع أدبياً هناك الكاتب جان جيونو في روايته «الخيال على السطح» عام ١٩٥١ ثم جان ماري غوستاف لوكليزو الحائز نوبل للآداب في رواية «المحجر» عام ١٩٩٥.

أما رواية «الحب في زمن الكوليرا» لغابرييل غارسيا ماركيز فقد استخدم الكاتب الكوليرا استخداماً آخر إذ وضعها في خدمة الحب حيث يروي قصة حب معقدة بين فلورنتينو وفيرمينا منذ سن المراهقة تستمر إلى ما بعد سن السبعين ضمن مجموعة متغيرات اجتماعية وسياسية إضافة إلى سرد تفاصيل الحرب الأهلية الدائرة في منطقة الكاريبي في قالب روائي يجمع بين لوعة العشق وقسوة الحرب وجائحة وباء الكوليرا، فلسفة خاصة في الحب والحياة وهروب من الواقع نحو واقع آخر أعراض الحب فيه كأعراض الكوليرا فأميركا اللاتينية تجتاحها أوبئة وحروب داخلية وحركات تحرر ضمن ظروف قاسية فيستخدم ماركيز الوباء كمنصة يدين من خلالها الواقع بجرأة ويشرّح العلاقات الاجتماعية والمؤسسة الدينية الرافضة للحب في سرد هجائي رائع لذلك الواقع والظروف القاسية التي تعيشها منطقة مهمشة تفترس أهلها الأمراض والأوبئة.

أما المجاز الأحدث للوباء فقد ورد في صحيفة واشنطن بوست تحت عنوان «طاعون ترامب» كتعبير مجازي عن استشراء الوباء منذ انتخاب دونالد ترامب رئيساً لأميركا والطاعون الذي تفشى داخل البيت الأبيض أشارت إليه أكثر من صحيفة أميركية داعية إلى مواجهته واجتثاثه.